

# بايرون في «سنتر»

قصة بقلم ايفو اندريتش  
ترجمة رائدة ادريس

بفتاة يصعب تحديد سنّها. كانت واقفة عند طرق الأسوار، قرب مرقب. كانت قد انبثقت أمامه فجأة، كما لو أنها أرسلت لتحمل إليه رسالة. كانت ترتدي ثوباً نظيفاً من كتّان أبيض، وكان لها وجه أسمر يحمل طابعاً أفريقيّاً غامضاً، وأنف صغير ذو منحرفين عريضين، علامة الصدق، وعينان ذكيتان تفيضان صحّة وبهجة. حيّت الغريب بكلمات غير مفهومة، بصوت منخفض وهيئة متواضعة، ولكن كان في صوتها وفي حركاتها شيء ما هو أكثر من تحية بسيطة. كانت تتأرجح ببطء وتنظر في عينيه مبتسمة، وهي تمرّر لسانها على شفيتها الجافتين. ما من شيء أكثر إثارة وأدعى إلى الاضطراب من شفاه هؤلاء البرتغاليات! إنّ لها ما هو نباقيّ ومعدنيّ في الوقت نفسه. كانت هاتان الشفتان غريبتين كشمريتين متفجرتين، تكشفان عن أيّ دم حارّ وداكن وعذب صنع منه داخل ذلك الحسم الرقيق الناضج. غير أنها، عند الأطراف فقط. مُنذجتان كشفاه النساء القوقازيات الجنس، ولكن زاويتيها تضيعان هناك في ظلّ حائر، كتجويف ورقة. كان يقول في نفسه: لا بد أنّي أبداً بالمظهر المضحك المرتبك

حين وصل بايرون الى «سنتر»، حصلت مناقشة حادة بينه وبين أصدقائه. لم يصلوا الى اتفاق حول الطريق الذي يجب ان يسلكوه في العودة. وكان ما يفضبه خاصة ان يقرأ في عيون خدمه أنهم كانوا، كالعادة، من رأي معارضيّه.

وقد انفصل عن اصدقائه حين عبروا حاجز البستان. كان اليوم يوم أحد. كانت الموسيقى تسمع من بعيد. ولكي يزيل غضبه، كان يصعد السلم ركضاً، محرّجاً ساقه القصيرة العرجاء، ناسياً انه كان مضحكاً حين يركض.

وكانت تفتح امامه بلا انقطاع شرفات جديدة وطرق جديدة ومنظر يزداد رحابة: اثنا عشر ميلاً من سهل أخضر يكتنفه البحر والسماء اللامتناهية. لم يكن يحسّ بالجهد. كان لديه إحساس بأنه يكبر، لا بأنه يصعد. لم يكن ثمة كائن حيّ. حتى ولا عصفور. كان يقول في نفسه: ها هو ذا أخيراً بلد الوحدة فيه مفرحة!

وفيا هو مسرع في تلك الممرات المشقوقة بين الأسوار، وتحت ناظريه حدائق بعيدة والبحر يزداد رحابة وبعداً، التقى فجأة



لشخص لا يعرف ماذا يريد. وبكل قواه، كان يحاول ان يبدو متجرداً وطبيعياً. بكل قواه، بمقدار ما كان يستطيع التصرف بها. ذلك انه كان، في داخله، يشتمل اشتعلاً. كان يخيل اليه ان كل ما كان كيانه يبحث عنه ابدأ، بل أكثر من ذلك، موجود الآن على هذه الراية المحضورة. كما لو أن الشر المجهول الذي كان قد طرده من انكلترا وكان يجبره على التطواف في العالم قد قاده عمداً إلى هذا المكان.

وفوق هوة مزدوجة، هوة الجدران الرمادية والمنحدرات المحضورة. والهوة الأخرى المصنوعة من كل ما هو غير مسموح به وغير ممكن، وهو ما كان متعطشاً اليه ابدأ، كان خياله المستثار بهيئة هذه المرأة وقربها، يطير بسرعة مدوّخة. وكما أنّ الجمرة التي يتركها الراعي تحدث حريقاً في الغابة، فان هذه المخلوقة الدقيقة كانت تشعل في بايرون رؤى ساطعة كان يجد فيها، لأول مرة، كل ما تعد به الأحلام، وما لا تمنحه النساء ابدأ وما تنتزعه منا الحياة بلا انقطاع. كان ذلك كله الآن يغلي في أعماقه، محمولاً بدفق دمه. ولكنه كان، في اللحظة التالية، يطفئ كل رغبة، ويُدْرَج هذه المخلوقة الحيّة الباسمة في فكرة جديدة مشعة، وكانت هذه الفكرة تملأه بطهارة هائلة، وبمفاجأة، وباحترام لا حدود له لهذا الكائن الإنساني المقدس فوق كل شيء.

\* \* \*

طوال هذا الوقت، كان يراوح مكانه اويدور ببطء حول الفتاة التي كانت تستدير لكي تواجهه، من غير أن تفارق نظره، وهي تراقب كل حركة من حركاته. وكان بايرون يتمم مهامه غير منسجمة. وكان يخيل إليه أنها هي أيضاً كانت تقول شيئاً. هكذا كانا يتبادلان النظر، ويدور أحدهما حول الآخر كحيوانين أشقرين، أحدهما كبير والآخر صغير، يشم أحدهما الآخر ويراقبه قبل أن يبدأ اللعبة الغريبة التي يتداعبان فيها أنأ ويمزق أحدهما صاحبه أنأ آخر.

كان كالمسحور، وكانت جميع حواسه تعمل بقوة وبراعة متزايدتين. كان يرى بياض عينيها الشديد الوضوح، كما هو الشأن لدى النساء البدائيات الصغيرات السن، وحدقتها المضيئتين اللتين تبدوان كأنهما من زبرجد. وكان يلتقط بدقة رائحة جسمها الأسمر وشعرها الجاف وعطر نسيج ثوبها الذي بيضته الشمس. لكأنه كان يتكاثر ويتضاعف، وكان بكل حاسة من حواسه حياتها الخاصة التي تبلغ من الكثافة أنها كانت في الوقت نفسه اغناءً له وموتاً له بصفته كائناً. كان يعلم الآن ما عساه تكون لحظة النبوة والنسيان! إن مثل هذه اللحظات، في الجحيم الذي يعيشه جميع الشهبانيين، هي واحات نادرة لا توقف فيها ولا راحة.

في تلك اللحظة، سمع بايرون أصواتاً آتية من الأدغال السمراء التي كان يضيع فيها الدرب. انتفض كما لو أن أحداً

أيقظه، فتابع سيره المقطوع في الممر الوعر، تاركاً الفتاة مندهشة، حتى دون أن يجيبها.

وتاه طويلاً في الدروب الضيقة والمنحدرات. وأخيراً أعادته المرات والمانحدر القوي من تلقاء نفسها أمام قصر الضواحي الذي كان قد أنطلق منه. وكان أصدقاؤه جالسين على مقاعد من حجر، ينتظرونه.

وعادوا إلى لشبونة بالطريق نفسها. وكان هذا ما اقترحه أصدقاؤه، وهو ما كان، منذ حين قد أزعجه جداً. ولم يعترض، هذه المرة. كان في مثل وداعة الحمل، ممتلئاً بمودة رقيقة، ليس فقط تجاه الناس، بل تجاه الأشياء كذلك.

عاش الأيام التالية في أهدأ وأجل حلم في حياته كلها. وكنّ على خطأ، بائنات السمك للشبونيات ذوات الأقدام العارية، تلك اللواتي كن ينظرن إليه وهو يتكلم وحده على شاطئ البحر، فيتدافعن بالمرافق ضاحكات ويعتبرنه مجنوناً... إنه لم يكن وحده، ولم يكن يتكلم مع أشباح. كان يتكلم مع كائن بشري يعيش في «سنتر»، له دمه الخاص، وقلب وعينان، وبالتأكيد أهل وبيت واسم. لكن هذا أقل أهمية. وفكر بأن يسميه باسم ثمرة أو معدن، ولكنه عدل عن ذلك، لأنه خيل إليه أنه بهذا ينتقص منه أو يحده. ثم اعتاد أن يسميها، في فكره، «المخلوقة الصغيرة»، ولكنه لم يكن يقول ذلك كما تقال الكلمات. كان ذلك فقط نَفْساً قصيراً، خلف شفثيه المغلقتين، بالكاد يسّ الخلق، وهو مع ذلك كافٍ لابتعاث صورتها كلها. وكان بايرون يُمسك به في حلقة بشدة، ويحتفظ به في ذاته كأنه شهوة.

\* \* \*

بعد زمن قصير، غادر لشبونة ثم البرتغال. وفي طوافه ببلاد أخرى، وحديثه مع الرجال، ومزاحه مع النساء، كان يحتفظ بسرّه بعناية، فخفياً إياه تحت الكلمات، والأشياء والأشكال، وكان يستطيع أن يتمتع به من غير أن يخون نفسه ابدأ. كان يربطه بالتداعي ببعض الكلمات، وكلما كان ينطق بها أحد أمامه، كان يستطيع، بلا علم أحد، أن يتمتع بحضورها من غير ازعاج. وكان في توقيعه إشارة صغيرة لا تكاد ترى كانت تعني امرأة مرتفعات سنتر. كان الليمون والملح والزيت وخمرة مالفوازي تعني كيانه. كان يستطيع، في غداء يجمع اثني عشر شخصاً، أن يستذكر «سنتر» الخضراء و«مخلوقتها» الصغيرة من غير أن يلحظ أحد ذلك، فيما هو يلعب بجبتي ملح يديرها بين الابهام والسبابة. وكان أثرها يغيب، أكثر ما يغيب، في وجوه النساء وكلماتهن وحركاتهن.

كان اتّصّاله بها، في الذكرى، يشفيه ويحميه من جميع اللقاءات، ومن النساء، ومن الحياة نفسها. ولكن في اللحظات السعيدة سعادة خاصة، أمام غياب الشمس فوق البحر، كانت تحدث معجزة حقيقية لا تفسّر ولا توصف: كانت راية

النهر الرديء من جديد ومضى به وهو ينحدر في مجرى الحياة. ولقد عرف من جديد هذه اللقاءات وتلك الصدمات التي يعقبها التقرّر كأنه ظلّها. وكان ذلك اشد قسوة وإيلاماً من قبل « سنترا ». ذلك أنه كان يخيل إليه الآن أن قوانين الحياة القاسية كانت تمدّ سلطتها الفريدة حتى إلى مجالات الحلم، من غير أن يستطيع أحد أن يفلت منها.

« سنترا » الخضراء تصبح نور السماء اللامتناهي، وكانت مسيرته العرجاء تصبح طيراناً طويلاً صامتاً، وذلك اللقاء الشهواني المحموم فتحاً فكرياً محضاً بلا وعي مؤلم ولا حدود. دام ذلك قرابة عام. ثم بدأت « المخلوقة الصغيرة » تمحّي وتشعب كالسراب، كحلم صباحي، وفقدت شيئاً فشيئاً سلطتها. وكان بايرون يُحسّ نفسه مهجوراً، يائساً، بلا قوة. لقد حمله

## أنت ابتداءً وأنت انتهاء!

تَعْرِفُ الْآنَ كُلَّ الْعَوَاطِفِ،  
- تعرف كل لغات العواطف -  
لكنّ واحدة أوصدت باب قلعتها،  
فأقطع اليمّ عوماً إليها.  
سفينتك احترقت بسجائر كنت تُكدّسها في الزوايا،  
وكنت تُعلّق أوسمة النصر في معطفك،  
فقل لي: أهذا هو النصر؟!  
ها قد خرجت من الحرب من غير مهر:  
فهل تعلم اليوم أن لكل الفوارس خيلاً  
تدكّ عباب الشوارع؟  
يا طارق الباب، أنت ابتداءً ..  
وأنت انتهاءً ..  
سدي لا تزال تراوغ ذاتك  
فآختر طريق الجحيم فما أنت كالهؤلاء.

وجدة (المغرب)

محمد علي الرباوي